

حياة أعظم الرسل

محمد في طفولته الأولى

## محمّد في طفولته الأولى

سَأَقْصُ عَلَيْكَ يَا بُنَيَّ قِصَّةَ الرَّسُولِ  
مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ طِفْلٌ .  
إِنَّ مُحَمَّدًا كَانَ مِنْ أَشْرَفِ أُسْرَةٍ (عَائِلَةٍ)  
بِمَكَّةَ الْمُكْرَمَةِ . فَأَبُوهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ  
الْمُطَّلِبِ . كَانَ أَحْسَنَ شَبَابٍ مَكَّةَ خُلُقًا  
وَأَدَبًا . وَلِهَذَا أَحَبَّهُ كُلُّ مَنْ رَأَاهُ . وَأُمُّهُ آمِنَةُ  
بِنْتُ وَهَبٍ الْفَتَاةُ الصَّالِحَةُ كَانَتْ مِنْ  
أَشْرَفِ بُيُوتِ قُرَيْشٍ . وَكَانَ أَبَاؤُهُ

وَأَجْدَادُهُ سَادَةُ الْعَرَبِ وَأَشْرَافُهُمْ . فَبَيْتُ  
الرَّسُولِ بَيْتٌ كَرِيمٌ ، عَظِيمُ الشَّرَفِ .  
فَلَا تَعْجَبْ إِذَا اخْتَارَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ رَسُولَهُ  
الْمُنْتَظَرَ . تَزَوَّجَ عَبْدُ اللَّهِ آمِنَةً بِمَكَّةَ ،  
وَعُمُرُهُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً . وَمَكَثَ فِي  
بَيْتِ أَهْلِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ كَعَادَةِ الْعَرَبِ ، ثُمَّ  
انْتَقَلَ الزَّوْجَانِ إِلَى بَيْتِهِمَا ، وَعَاشَا عَيْشَةً  
سَعِيدَةً ، وَلَكِنَّ الْمُدَّةَ الَّتِي مَكَثَاهَا مَعًا  
كَانَتْ قَصِيرَةً جِدًّا . حَمَلَتْهُ أُمُّهُ آمِنَةً ، ثُمَّ  
ذَهَبَ أَبُوهُ عَبْدُ اللَّهِ فِي رِحْلَةٍ إِلَى الشَّامِ



لِلتَّجَارَةِ . وَفِي أَثْنَاءِ رُجُوعِهِ مِنْ رِحْلَتِهِ  
وَقَفَ لِيَسْتَرِيحَ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ،  
فَمَرِضَ ، ثُمَّ مَاتَ ، وَدُفِنَ بِالْمَدِينَةِ .  
وَكَانَتْ وَفَاتُهُ ( مَوْتُهُ ) بَعْدَ الْحَمْلِ  
بِشَهْرَيْنِ . فَصَارَ ابْنُهُ يَتِيمًا قَبْلَ أَنْ يُوَلَّدَ .  
سَمِعَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بِمَوْتِ ابْنِهِ عَبْدِ  
اللَّهِ فِي الْمَدِينَةِ ، فَحَزِنَ وَحَزِنَتْ  
( زَوْجَتُهُ ) آمِنَةُ حُزْنًا شَدِيدًا لِمَوْتِهِ . .  
حَاوَلَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ أَنْ يُدْخِلَ الصَّبْرَ  
فِي قَلْبِ آمِنَةَ ، وَيُخَفِّفَ أَحْزَانَهَا ، وَقَالَ

لَهَا : يَا ابْنَتِي إِنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ  
يُعَوِّضَنَا خَيْرًا ، وَيُعْطِينَا هَدِيَّةً ثَمِينَةً تَحُلُّ  
مَحَلَّ أَبِيهِ . فَأَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ ، وَرَزَقَ  
هَذِهِ الْأُسْرَةَ طِفْلًا كَانَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِ  
كُلِّهِ .

وَبَعْدَ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ مِنْ حَمْلِهِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ  
بِمَكَّةَ فِي فَجْرِ يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ ٢٠ مِنْ إِبْرَيْلَ  
سَنَةِ ٥٧١ مِنَ الْمِيلَادِ ، فِي بَيْتِ عَمِّهِ أَبِي  
طَالِبٍ . وَامْتَلَأَ الْبَيْتُ نُورًا . وَحِينَمَا وُلِدَ  
أَرْسَلَتْ أُمُّهُ آمِنَةً لِجَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

تُخْبِرُهُ الْخَبَرَ السَّارَّ ، فَجَاءَ وَهُوَ  
مَسْرُورٌ . وَقَامَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ نَحْوَ أُمِّ  
الطُّفْلِ . وَفِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ وَلَادَتِهِ  
الْهَمُّ اللَّهُ أَنْ يُسَمِّيَهُ مُحَمَّدًا . وَدَعَا  
رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ فَحَضَرُوا ، وَتَنَاوَلُوا  
الطَّعَامَ فَرَحًا بِالمَوْلُودِ الْجَدِيدِ . وَسَأَلُوا  
جَدَّهُ : مَاذَا سَمَّيْتَهُ ؟ فَقَالَ : سَمَّيْتُهُ  
مُحَمَّدًا ؛ لِأَنِّي أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ مَحْمُودًا  
فِي السَّمَاءِ عِنْدَ اللَّهِ ، وَفِي الْأَرْضِ عِنْدَ  
خَلْقِهِ . لَقَدْ وُلِدَ مُحَمَّدٌ يَتِيمًا ، وَلَمْ يَرِ



أَبَاهُ ، وَلَكِنَّ عِنَايَةَ اللَّهِ لَأَزَمَّتُهُ ، وَلَمْ  
تُفَارِقْهُ .

وَمِنَ الصَّعْبِ يَا بُنَيَّ أَنْ أَصِفَ لَكَ  
مِقْدَارَ مَا أَحَسَّ بِهِ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ مِنْ  
السَّعَادَةِ بِابْنِ ابْنِهِ . لَقَدْ طَلَبَ مِنْ أُمِّهِ آمِنَةً  
أَنْ تَسْمَحَ لَهُ بِأَنْ يَحْمِلَهُ . فَأَعْطَتْهُ  
مُحَمَّدًا ، فَحَمَلَهُ بِكُلِّ عِنَايَةٍ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ  
وَقَالَ لَهَا : أَهْنُوكِ يَا ابْنَتِي بِطِفْلِكَ  
الْعَظِيمِ . لَقَدْ حَزِنَّا كُلَّ الْحُزَنِ حِينَمَا  
مَاتَ أَبُوهُ عَبْدُ اللَّهِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَوَّضَنَا

خَيْرًا عَظِيمًا بِوِلَادَةِ مُحَمَّدٍ . أَنْظُرِي  
يَا ابْنَتِي إِلَيْهِ ! إِنَّهُ مِثْلُ أَبِيهِ تَمَامًا فِي  
صُورَتِهِ . لَوْ كَانَ أَبُوهُ عَبْدُ اللَّهِ حَيًّا لَكُنَّا  
الآنَ فِي غَايَةِ السَّعَادَةِ . أَنْظُرِي إِلَى  
عَيْنَيْهِ ، إِنَّهُمَا كَعَيْنَيْ أَبِيهِ . أَنْظُرِي إِلَى  
وَجْهِهِ ، إِنَّهُ كَوَجْهِ أَبِيهِ . هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ  
يُولَدَ طِفْلٌ أَجْمَلُ مِنْ هَذَا ؟

نَظَرْتُ آمِنَةً إِلَى وَجْهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ  
فَوَجَدْتُهُ سَعِيدًا ، فَابْتَسَمْتُ وَقَالَتْ لَهُ :  
أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُطِيلَ حَيَاتَكَ حَتَّى تَفْرَحَ



بِهِ . وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ اعْتَادَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ  
أَنْ يَزُورَ مُحَمَّدًا وَأُمَّهُ آمِنَةَ مَرَّتَيْنِ كُلَّ يَوْمٍ  
صَبَاحًا وَبَعْدَ الظُّهْرِ .

مَنْ تُرْضِعُ الْيَتِيمَ ؟

اعْتَادَتِ الْأُسْرُ ( الْعَائِلَاتُ ) الْكَبِيرَةُ  
فِي مَكَّةَ أَنْ تُرْسِلَ أَطْفَالَهَا الصِّغَارَ إِلَى  
الصَّحَرَاءِ لِرِضَاعِهَا وَتَرْبِيَتِهَا وَفِطَامِهَا ؛  
لِيَعِيشُوا فِي الْهَوَاءِ الطَّلَقِ ، وَالْجَوِّ  
الصَّحِيِّ ؛ لِيَكُونُوا أَقْوِيَاءَ الْأَجْسَامِ ،  
وَيَتَعَلَّمُوا اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ الْفَصِيحَةَ . وَقَدْ

اعْتَادَتْ الْمُرْضِعَاتُ الْبَدَوِيَّاتُ الذَّهَابَ  
إِلَى الْمُدُنِ لِزِيَارَةِ الْأُسْرِ الَّتِي تَرْغَبُ فِي  
إِرْضَاعِ أَطْفَالِهَا الْمَوْلُودِينَ حَدِيثًا ؛  
لِلْإِسْتِعَانَةِ بِالرَّضَاعَةِ عَلَى مَعِيشَتِهِنَّ .

وَلَمْ تَتَقَدَّمْ مُرْضِعَاتُ لَبَيْتِ آمِنَةَ ؛  
لِعِلْمِهِنَّ أَنَّ مُحَمَّدًا يَتِيمٌ ، وَلَيْسَ هُنَاكَ  
أَبٌ يُكْرِمُهُنَّ وَيُقَدِّمُ لَهُنَّ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَالِ  
لِلرَّضَاعَةِ وَالتَّرْبِيَةِ . فَمَنْ الَّتِي تَرْضَى بِأَنْ  
تُرْضِعَ مُحَمَّدًا الطِّفْلَ الْيَتِيمَ ؟

حَضَرَتْ الْمُرْضِعَةُ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ

إِلَى مَكَّةَ ؛ لِتَبْحَثَ عَنْ طِفْلِ مِنْ أُسْرَةٍ  
غَنِيَّةٍ لِتَرْضِعَهُ ، فَلَمْ تَجِدْ . وَقَدْ عُرِفَتْ  
بِأَنَّهَا نَبِيلَةُ الْخُلُقِ ، طَيِّبَةُ الْقَلْبِ .  
وَجَدَتْ كُلَّ مُرْضِعَةٍ طِفْلاً تُرْضِعُهُ  
إِلَّا حَلِيمَةَ ، فَإِنَّهَا لَمْ تَجِدْ أَحَدًا . فَكَانَتْ  
الْمُرْضِعَاتُ مَسْرُورَاتٍ مَاعِدَا حَلِيمَةَ .  
وَبَدَأْنَ الْإِسْتِعْدَادَ لِلرُّجُوعِ إِلَى بُيُوتِهِنَّ .  
وَتَضَايَقَتْ حَلِيمَةُ ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَجِدْ طِفْلاً  
غَنِيًّا تُرْضِعُهُ .

وَقَدْ حَدَّثَ أَنَّ جَدَّ مُحَمَّدٍ كَانَ مَرًّا



بِالطَّرِيقِ ، فَرَأَى الْحُزْنَ عَلَى وَجْهِ  
 حَلِيمَةَ ، وَوَجَدَ كُلَّ مُرْضِعَةٍ تَحْمِلُ طِفْلاً  
 رَضِيعًا بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا إِلَّا حَلِيمَةَ ، فَقَالَ  
 لَهَا : تَعَالَى مَعِيَ . فَفَهِمَتْ حَلِيمَةُ أَنَّ  
 عَبْدَ الْمُطَّلِبِ يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهَا مُحَمَّدًا  
 لِإَرْضَاعِهِ . وَرَأَتْ أَنَّ رُجُوعَهَا إِلَى بَيْتِهَا  
 وَمَعَهَا طِفْلٌ يَتِيمٌ أَفْضَلُ مِنْ أَنْ تَرْجِعَ  
 وَلَيْسَ مَعَهَا أَيُّ طِفْلٍ .

وَقَدْ لَحَظَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ تَرَدُّدَهَا فِي  
 اخْتِذِهِ لِثَرَضِعِهِ ، فَقَالَ لَهَا : حَقًّا إِنَّ

مُحَمَّدًا يَتِيمًا ، وَلَكِنَّهُ عَزِيزٌ ، وَإِنِّي أَحِبُّهُ  
أَكْثَرَ مِنْ مَحَبَّةِ الْأَبِ لِابْنِهِ . وَلَا تُفَكِّرِي  
فِي فَقْرِهِ ؛ فَإِنِّي سَأُكَافِئُكَ كَمَا يُكَافِي  
الْأَغْنِيَاءُ مُرْضِعَاتِهِمْ . فَاعْتَنِي بِهِ ، وَرَبِّهِ  
كَمَا تُرَبِّي الْأُمَّ ابْنَهَا .

أَخَذَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حَلِيمَةً ، وَذَهَبَا مَعًا  
إِلَى بَيْتِ آمِنَةَ ، وَعَرَّفَ آمِنَةَ بِحَلِيمَةَ ،  
وَقَالَ لِآمِنَةَ : إِنَّ حَلِيمَةَ قَدْ وَافَقَتْ عَلَى  
أَنْ تَأْخُذَ مَعَهَا مُحَمَّدًا ؛ لِتَرْضِعَهُ  
وَتُرَبِّيه .

وَطَلَبًا مِنْ حَلِيمَةٍ أَنْ تَحْمِلَ الطِّفْلَ  
الرَّضِيعَ ؛ لِيرِيَا : هَلْ يَرْضَى بِالذَّهَابِ مَعَ  
هَذِهِ الْمُرْضِعَةِ الْغَرِيبَةِ ؟ فَحَمَلَتِ الطِّفْلَ  
الْعَزِيزَ ، فَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ  
رَاضٍ بِالذَّهَابِ مَعَهَا . وَقَدْ لَحَظَتْ  
حَلِيمَةُ أَنَّ الْأُمَّ تَنْظُرُ إِلَى ابْنِهَا الْوَحِيدِ  
نَظْرَةً كُلُّهَا حُزْنٌ لِفِرَاقِهِ . فَقَالَتْ حَلِيمَةُ  
لِأُمِّهِ : أَرْجُو يَا سَيِّدَتِي أَنْ تَكُونِي مُطْمَئِنَّةً  
مِنْ جِهَةِ ابْنِكَ . وَتَأْكُذِبِي أَنَّي سَاعَتَنِي بِهِ  
أَكْثَرَ مِنْ عِنَايَتِي بِأَوْلَادِي .



سَأَلَتْ حَلِيمَةُ أُمُّهُ : مَا الْمُدَّةُ الَّتِي  
تُرِيدِينَ أَنْ يُمْكُثَهَا مَعِيَ ؟ فَأَجَابَ جَدُّهُ :  
أَبْقِيهِ مَعَكَ حَتَّى يَكْبُرَ جِسْمُهُ ، وَيَسْتَطِيعَ  
أَنْ يَمْشِيَ وَحْدَهُ . وَأَرْجُو أَنْ تَزُورِينَا مِنْ  
وَقْتٍ لآخر ؛ لِتَرَاهُ أُمُّهُ ، وَتَطْمَئِنَّ عَلَيْهِ ،  
حَتَّى تَهْدَأَ نَفْسُهَا مِنْ جِهَتِهِ .

كَانَتْ حَلِيمَةُ فَقِيرَةً ، وَلَبَنُهَا قَلِيلًا  
لِقِلَّةِ غِذَائِهَا . فَلَمَّا بَدَأَتْ تُرْضِعُ الطِّفْلَ  
الْيَتِيمَ ، وَجَدَتْ لَبَنَهَا كَثِيرًا عَلَى غَيْرِ  
الْعَادَةِ ، فَعَجِبَتْ وَقَالَتْ : لَقَدْ أَرْضَعْتُ

أَطْفَالاً كَثِيرِينَ قَبْلَ هَذَا ، وَكَانَ لَبَنِي  
 قَلِيلاً دَائِماً . وَأَعْتَقِدُ حَقّاً أَنَّ هَذَا الطُّفْلَ  
 كَثِيراً الْبَرَكَاتِ . وَسَيُكْرِمُنِي اللَّهُ بِسَبَبِهِ .  
 اسْتَأْذَنْتُ حَلِيمَةً ، وَأَخَذْتُ مُحَمَّدًا  
 عَلَى يَدَيْهَا ، وَقَبَّلْتُهُ أُمُّهُ وَجَدُّهُ . وَوَدَّعَا  
 مَرْضَعَتَهُ وَمَرْبِيَّتَهُ .

لَقَدْ كَانَتْ حَلِيمَةُ سَعِيدَةَ الْحَظِّ ؛ بَلْ  
 أَسْعَدَ امْرَأَةً فِي الْوُجُودِ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهَا فِي  
 الْوَقْتِ الَّذِي فَكَّرْتُ فِيهِ أَنْ تَرْجِعَ  
 وَلَا طِفْلَ مَعَهَا — قَدْ رَجَعَتْ وَهِيَ تَحْمِلُ

بَيْنَ ذَرَاعَيْهَا أَعْظَمَ طِفْلٍ خُلِقَ فِي الْعَالَمِ  
كُلِّهِ . فَهُوَ الطِّفْلُ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ لِيُغَيِّرَ  
صَفَحَاتِ التَّارِيخِ ، وَيُصْلِحَ الْعَالَمَ ،  
وَيَنْشُرَ الدِّينَ الْحَقَّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ،  
وَيَكُونَ آخِرَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ .